من سير الخالدين

حيـــــاة المازنى *

للأستاذ محمد محمود حمدان

(قل من الصبيان من اتفق له ما اتفق لى من التجارب) « المازنى »

— ٣ —

براعة الشوط

انتهى المازنى من مرحلة الدراسة الثانوية . وبقى عليه أن يختار لنفسه الاتجاه الذى يؤثره فى المرحلة النهائية . وقد اختار مدرسة الطب ، لأنها كانت المجال الذى آثره غير واحد من ذوى قرابته ، ولأن « مصروفاتها المدرسية » كانت مما يدخل فى طوقه « . . ولكن ناظرها الدكتور كيتنج رمى لى بأوراق فى الشارع ، لأنى يوم الكشف الطبى دخلت قاعة التشريح فرأيت جثة منتفخة تفوح منها رائحة نتن خبيث ، فدار رأسى وأغمى على »

وطرق باب مدرسة الحقوق وهى أقرب إلى ملكاته ، وكانت نفقاتها كذلك مما يقدر عليه . على أنه لم يكد يتقدم إليها حتى ضوعفت « مصروفاتها » فارتد عنها حائراً لايعرف إلى أين يصير

وكان القدر ينسج بعض خيوط هذه الحياة المضطربة ، حياة المازنى ، حين أعلن فى ذلك العام افتتاح مدرسة المعلمين العليا . وعرف المازنى أن التعليم فيها بالمجان ، وأن مدة الدراسة سنتان ، بل إنها ، فوق ذلك ، تمنح تلاميذها مكافآت شهرية يسيرة ولكن لابأس بها فى ذلك الحين . واجتذبت المازنى كل هذه المزايا إلى المدرسة ، فألقى فيها بنفسه ، على كره ، بعد أن ودته الطب والحقوق

وفى مدرسة المعلمين لم تكن مواد الدراسة كثيرة ولا البرامج طويلة ، ولا تخصص فيها

ويقول الأستاذ العقاد « كان الطالب فى تلك المدرسة يستعد لتدريس الرياضة والجغرافية أو التاريخ فى الوقت الواحد . . فأوحت سليقة الأدب إلى هذا الطالب الجديد على المدرسة أن يهدى أساتذتها إلى التفرقة بين ملكات العلوم وملكات الآداب ، فقد أضرب عن تعليم الرياضة ، بل أضرب — كما قال لى — عن فهمها ومذاكرتها . وذهب مع زملائه مرة فى زيارة من زيارات التدريب التى تمتحن فيها خبرة المعلم الناشىء بصناعته ، فكان زملاؤه يختارون درساً فى الحساب أو درساً فى الجبر أو درساً فى تقويم البلدان ، وأبى هو إلا أن يختار لدرسه أبياتاً من الشعر العربى ، يشرحها على طريقته ، ويتكلم عن ناظمها ، ويبين فى سياق شرحها مزايا الشعر العربى بالقياس إلى أشعار الأمم الأخرى »

واستطاع طلبة الدفعة الأولى بالمدرسة — وكانوا سبعة وعشرين طالباً ليس إلا ، أصغرهم سنا صاحبنا المازنى — أن يقفوا أوقات فراغهم ، فى المدرسة ، على المطالعة الخاصة . وكانت لهم فى الأسبوع ثمانى ساعات لايتلقون فيها أى درس . ووجدوا الحث والتوجيه والتشجيع من الناظر والأساتذة . ويقول المازنى عن ناظر المدرسة الإنجليزى لذلك العهد ، الدكتور دلينى ، أنه كان عالماً واسع الاطلاع ، « فكان إذا رآنى أستعير كتاباً من مكتبة المدرسة يعدنى بأنه يعيرنى كتابا من عنده فى موضوعه . وينجز وعده ، ثم يتركنى أياماً ، حتى إذا لقينى مصادفة فى فترة من فترات الاستراحة بين الدروس ، أقبل على وراح يحدثنى عن الكتابين ، دون أن يسألنى عنهما ، أو عما قرأت منهما ، ثم يمضى عنى . فكان هذا يضطرنى إلى العكوف على الكتب وكانت هذه إحدى وسائله لتشجيعنا على القراءة والاطلاع »

ومن المحامد التى تذكر لمدرسة المعلمين ، ولناظرها الدكتور دلينى على التخصيص ، أنه كان أول من ثنى عنان الاهتمام فى نفوس تلاميذه نحو طائفة من أدباء الإنجليز وعلمائهم من أمثال ماكولى وكارليل وهازلت ولى هنت . فشاعت كتبهم بين ناشئة ذلك الجيل وساعدت على تنوير الأذهان وتحويلها إلى معنى الأدب الصحيح

ولا ريب أن مالسه المازنى من هذه الروح تنشحذ فيه موهبته الأدبية ، فأقبل على الدرس والقراءة والتحصيل ، وحفزه الجو

الذى كان يضطرب فيه وتمتلئ بهوائه كلتا رئتيه ، إلى المثابرة والتوفر على ثمار القرائح فى شتى الآداب . وكان من زملائه فى المدرسة من له مثل ميله إلى الأدب والكتابة فاتصل بهم ، وعرف منهم فى ذلك الحين الطالبين محمد السباعى وعبد الرحمن شكرى ، وكان كلاهما واسع الاطلاع على الأدبين العربى والإنجليزى . وقد أخرج شكرى الجزء الأول من ديوانه وهو يعد طالب بالسنة الأولى وكان له فى الوسط الأدبى ضجة كما كان السباعى يكتب فى « الجريدة » . . وكان هذا بمثابة الدافع والحافز للمازنى ، فعالج الكتابة والشعر ، وبدأ ينشر فى الصحف منذ عام ١٩٠٧ . وتوثقت الصلة بينه وبين شكرى ، أو كما يقول « فصار أستاذى وهو زميلى ، وكان ينقصنى التوجيه فتولاه شكرى »

ووسع المازنى ، وهو طالب بعد ، أن يقتنى حاجته من الكتب .. « وكان موظفو مكتبة « دير » يعرفوننى ويأتمنونى لكثرة ما أشترى منهم ، وهو فى كل شهر فوق الكفاية لشهور . ومع ذلك غافلتهم وسرقت طبعة جيب لروايات شكسبير ! وإن كانت عندى مجموعة كاملة منها بشروحها وتفاسيرها ! »

وكان كما يقول كثير الغياب عن المدرسة ؛ « لأنى كنت أسهر إلى الصباح أقرأ وأحاول أن أفهم ، ثم أنام فأتخلف . فدعانى ناظر المدرسة ، المرحوم إسماعيل حسنين باشا — عليه ألف رحمة — وقال لى يابنى إنك « حمار » فى العلوم الرياضية ، وأنا أخشى عليك الرسوب ، ولا ألومك على التخلف مادام هذا عذرك ، فخذ إجازة خمسة عشر يوماً ، واقرأ ما شئت ، ثم واظب بعد ذلك على الحضور »

وظل هذا نهمه بالقراءة التقصية العميقة وعكوفه على الكتب ومنها الجاف العويص مثل « أصل الأنواع » لداروين . ولم يصرفه تخرجه واشتغاله بالتدريس عما كان فيه

ويروى المازنى أنه اتفق يوماً أن كان فى مقهى فيما يعرف الآن بميدان الإسماعيلية ، « . . وكان معى كتاب الشاعر على مائدة الإفطار لويندل هولز ، وكنت أقرأ فيه . فر أستاذى فى الأدب الإنجليزى ، فنهضت لتحيته ، فقال لى بعد كلام ، لقد أصبحت موظفاً وأكبر ظنى أنك انصرفت عن القراءة والاطلاع ، فأريته الكتاب فربت على كتفى وقال ، هذا ما أرجو ، أن تظل تقرأ وتقرأ ولا تشبع ، وأن تحرص دائماً على أن تضيف عقولا إلى عقلك »

ولعل الإنصاف يقتضينا أن نزيد هنا كلمة حق . فقبل أربعين سنة ، لم يكن يتيسر لطلاب الأدب فى مصر سبيل القراءة الأدبية كما تتيسر لطلاب اليوم . فقد كانت أمهات الكتب العربية — فى الأغلب — لا تزال مخطوطة فى دور الكتب العامة أو المكتبات الخاصة ، وكان ما طبع منها فى مصر أو الشام ، على ضآلته ، حافلا بالنقص والتشويه والتصحيف . وقد بلا المازنى معاناة هذه الكتب فى عهد الطلب ، وراض نفسه على الجد والتشدد ومصابرة الجهد فى سبيل الوصول إلى غايته وإشباع رغبته

ونسوق هنا قصته مع كتاب « الأغانى » وكان من أول ما اقتنى من الكتب ، وكانت نسخته التى وقعت له من طبعة ناقصة مشحونة بالخطأ والتصحيف فى كثير من مواضعها . فعمد إلى أجزائه يفكها « ملازم » وجعل يحملها معه ملزمة ملزمة إلى دار الكتب ويراجع النصوص نصا نصا ، وبيتاً بيتاً ، وبدون التصحيح أو التكملات على ورق أبيض أعده لذلك ، وصار يلصق الورق المكتوب بين الصفحات المطبوعة ، وهكذا إلى آخر الكتاب بأجزائه التى تربو على العشرين

ومثل ذلك قصته مع ديوان « الشريف الرضى » — والشريف أول من اتجه إليهم المازنى وآثرهم بميله من شعراء العربية — فقد وقعت له نسخة من مطبوعة الهند ، ويقول المازنى إنه لم يسلم فيها بيت واحد من التحريف والتشويه حتى أعياه فهم الديوان وكاد اليأس أن يصرفه عنه . على أنه أقبل عليه يعالج تصحيحه ، وقضى فى ذلك قرابة عامين ، يوفق حيناً ويخفق أحيانا . حتى عثر فى النهاية على نسخة من طبعة بيروت — وهى أسلم وأصح فى مواضع — فاستراح إليها

أما قصته مع ديوان « ابن الرومى » فهى أعجب . ذلك أن الديوان بقى مخطوطا منسيا يكاد لا يذكره أحد ، حتى التفت إليه أساتذة الذهب الجديد . فشرع المازنى فى نقله عن إحدى نسختيه — وصادف أنها كانت أردأهما خطا وأكثرها غموضا — ثم عكف عليه سنوات طويلات المدد ، يعالجه بالضبط والتصحيح